موتٌ أَوشك على الرّحيل

نيفين صلاح الغول – فلسطين

هل حقًا هناك موتٌ يأتي بترتيب مسبقٍ!

كيف يمكن أن يوشك على الفناء، وهو قدرٌ يقتنصنا بغتةً، لا إيلام في الموت، هو طلقة قنصٍ لا تخطئ!

في طريق اللاعودة وجدتني أدندنُ الترانيم وأعزف الألحان على أَوتار وجعي، كان الجوّ أرجوانيًا جميلًا رائقًا، والأشجار تتراقص برفقة سيمفونية رقراقة، السماء صافية بلا غيوم سوداء، بداياتُ الربيع مصحوبةٌ بزقزقة العصافير المداعبة لخد الصباح.

كنت أداعبُ الحصى بطرف قدمي اليمنى وأتمايلُ ذات اليمين وذات الشمال، وَحْدي كنت عالمي، فقط أنا دون أحدٍ، لا أحد يكترث لأمري رغم ازدحام شوارعي التي أدمنتها كلما مررت بها، لم يكن هناك قيمة لتعداد المارين يومها، الطبيعة بكل جمالها اليوم تعبث جاهدةً كي تجذبني لها أشعُرُ بذلك حقًّا، وكأنَّها تخبرني أنني ما زلت هنا على قيدها، تنفست الصعداء حينما وفي أعماقي داعبتُ كلَّ الخيالات التي دفنتها خوفًا وطمعا بالموت، لكن سرعان ما مَسَحْتُ البسمة عن ثغري!

لم أُخلق هكذا هم لوّنوني بالأسود وليس بأي أسود إنه القاتم المعتم الداكن لأكثر من اللزوم، أكملت المسير بطريقي المعوجّة أو بالأحرى غير الواضحة المعالم، المبهمة، المجهولة، الضالّة لا أدري فأنا هائمةٌ بالطرقات كنت هكذا وما زلت.

تَمْتَمْتُ بين ثنايا عقلي متسائلة: "هل أنا أنا دون رتوش جديدةٍ أو أصباغٍ تنزاح بمجرد هطول الواقع الحقيقي؟ إن تغيرت فمن أكون؟ وما الذي جاء بي إلى هنا؟ ولماذا اختلطت الأمور على وقد تكون بي أو فيَ العلة؟". فجأةً ارتطمت بمجموعةٍ من الأقنعة؛ أقصد الأشخاص المجهولين، حدثتهم.. توسلت إليهم: "بربكم استمِعوا لي، لا تلوموا، لا تعتبوا، ولا تنعتوني بالحمقاء البلهاء، اتركوني كي أفرغ ما بجعبتي من كلماتٍ قبل أن يأتي الخرس النهائي ليخرسني!".

أنا حالة ضياعٍ وصراع غير منتهٍ، أمواج الحياة تتلاطم على كاهلي والموت يرفضني والأرضُ ابتلعت أبنائي، أما العاهرون فقد التهموني بفظاظةٍ، أسترجع وجوههم وأصاب بلوعةٍ بالمعدة وضيقٍ تنفس، ذاك بأربع أرجل، والثاني يمتلك صفًّا من الأسنان المنحوتة كأنها أسنان قرشٍ، والثالث لديه رأس بحجم ثمرة قرعٍ ناضجة أما طولُه كأنه ناطحة سحابٍ، وغيره الكثير ..اللعنة!

الطبيعةُ تتدخّل وتصفعني..بحفنةٍ من التراب تنهرني

- "أما سئمتِ من هذا السواد وهذه القصة غير المنتهية، ألم تقطعي وعدًا بأنك ستترفَّعين عن الوجع؟ من قليل قد كنتِ بحالة جيدة ماذا حلّ بك؟".
- "ويحك لم توبخينني!؟".

أتوسّل تلك الأقنعة كي تتجاهلها وتنصت لي أحاول إقناعهم بأنها لا تتفوَّهُ بشيءٍ مفيدٍ، فقط تلوذ بالصمت إزاء كلِّ الأمور، أتدرون لو تكلمتُ منذ البداية ما حلّ بي ما حلَ، لكنّها ترفعت عن الدفاع عني!!

سأعتصر ما بجُمجمتي من أحداث وأخبر ذاك القلق فيكم ألا يقلق!

الجميع يشبهونكم يجلسون ويبتَسِمون بالبداية ويُشيرون بأيديهم كي أروي لهم قِصَّتي غير أنهم عند منتصف الحديث ودون إنذارٍ يهمون بالرحيل وأبقى وحدي لكن بربكم ماذا ستخسرون إن استمعتم..ها ماذا؟ أعتذر لقد أطلتُ بالمقدمة وأنتم بارعون في الاستماع المزيَّف والملل!

أولًا: أنا أشعر بجسدٍ غير جسدي يهد أركاني، يحتلّني، يغتصبُ ذاكرتي، يطال كل الذكريات المؤلمة وينقضها كمن ينقض غزله، وأشعر بأن هناك دمًا نتنًا يختزل دمي، وقلبًا مزيفًا يستوطن عمق القلب، أشعر بشخصٍ يضع كفيه على شفتيَ يسكتني بالقوة، ستقولون ما هذه السذاجة؟ أنا بِغِنى عن دموعكم وعن كلمات المواساة تلك وبِغِنى عن نظرات الاستحسان والشفقة، لست بضعيفةٍ، أقوى منكم أنا؛ فقط خُذلت وانتهكت!

هم أسقطوا أبنائي من أحشائي بلا رحمةٍ، اغتصبوا ثقافةَ جسدي وتراثه، ومزّقوا ثيابي، ثم غرسوا حوافرهم بين نهديَ، ليكون مهبط طيران خَرِبٍ، لمن هبّ وَدَبّ، من خفافيش الرغبة المتوحشة، تركوا الدماء تنهمر دون رأفةٍ بحالي، لم يكن بكائي شفيعًا لي ولا شلال دمي المنساب، أخذ يرسم طريقه على الأرض في خطوط غير منتهيةٍ، أسقطوا أبنائي وسقطت معهم..أيّ لعنةٍ تلك التي حلت بي!

- "أجزم بأنك ستموتين وأنتِ تروين هذه القصة، أما سئمتِ؟ أتدرين طالما حييت سأضع كفي على فمِك كي تكفي عن هذا الهراء".

- "هراء، شكرًا أيتها الطبيعة بكلِّ الوجع المنغرز في خاصرتي.

لو سمحتم تناسوا أمرَ الطبيعة دعونا نرجع لنقطة الوقوف..آه تذكرت..يومها يا رفاق كنت كجرادٍ مدعوسٍ ملقى على الأرض غارقًا بدمائه، حاولَ الهروب غيرَ أن الفرصة لم تسنح له بالفرار تقلَّصَ على نفسه واحتضن بقاياه بلا أيدٍ أخد يبكي بلا دموع ويصرخ بلا صوتٍ ويشهق بلا فمٍ، لا أحد غيره وغير دمه الحارّ المترامي بالأرجاء، تقلَّصَ على بعض ورضخ لما حل به! أنا والأرض وأبنائي والعاهرون متلازمون، كعملية البناءِ الضوئيّ، يدخل أكلي يفتّت لحمي ويعتصرُ جسدي، يملأ المكان بي تساعده الأرض التي لطالما استغربت حيالها أن الذي خلقت من ترابها كيف سمحت لهم بأن يتخذوا منها سريرًا لافتراشي كيف..اللعنة .. ثم أسقط ويُسقطوا أبنائي وهكذا.. المشهد مكرَّرٌ وأحد أطفالي -أقصد من عاش منهم في زمن كثر به الموت-، طفلي ذاك لا يعرف للمهانة عنوانًا، بالأحرى هو الأقوى بين إخوته؛ لأن الموت لم يتمكن منه بعد، في عالمي الموت للجبناء فقط..سيأتي يومٌ وستعلمون بأنني أقول الصواب، كان طفلي في كل مرة أبكي بها يأتي ويُرَبِّتُ على كتفي قائلا: "فلتبكي يا أمي، مارسي ضعفك بين بعضك، أمّا في العلن كوني الأقوى!".

هذا القلب الصغير مصدر قوةٍ وسندٍ دائم، فمن بعد كلماته لم أبك قط، ليلتها شعُرت بالموت، كان يزورني ويقترب جدًّا وجدًّا!

ابتسمتُ وقهقهتُ وانتشيت، أي روعة تلك! لقد حان دوري وأخيرًا رحبت به ومددت يدي بالإشارة كي يجلسَ على الأريكة الوحيدة الموجودة بمنزلي بعدما أزلت الغبار عنها، رفض الجلوسَ ونظر إلي نظرة اشمئزاز، لا يهم لا أشعر بالحُنْق؛ الأمر عابرٌ والنظرة متوقَّعة، المهم الآن أن يلتهمني ويستقبلني..على حين غِرَّةٍ تدخلت الطبيعةُ بأنفها الكبير كالعادة قائلة للموت: "لم تستعجل

أمرها؛ اتركها قليلًا لم ينتهِ دورها وحكايتها لم تنتهِ بعد، لم يَنْبِسْ الموت ولم يحرك ساكنًا، بكل سهولة ركلني إليها، زفرني بعدما شهقنِي..النرجسي الذي يبغضه الجميع ولا أحد يتمناه يوم تمنيته رفضني؛ سُحْقًا.. حتى بالموت أمري معكوس وفرحتي غيرُ مكتملة، بعدما فتح فمَهُ على مصراعيه لاستقبالي رفضني، كان من المفترض أن أتوقّع ذلك من نظرته المستحقرة لي، ليته اكتفى بذلك غير أنّه ركلني للطبيعة التي تلقفتني وتلاعبت بي بقدميها ككرة قدمٍ بالية جعلتني أشعر بدوار ووجع غير كل أنواع الوجع التي حَلَّتْ على جسدي، غنّيت، بكيْت، صرختُ بصوت مسموع وكأنني لم أفعلْها من قبل، صغيري لم يُرَبِّتُ على كتفي ولم يحتضنني ليلتها. همس قائلا: "ألم تكتفي بمن نهشوا جسدك يا أمي!".

تأملت عينيه وأنا أشعر بضعفٍ لم يسبق أن مَرَّ علي، صدقني يا صغيري هو الملاذُ الأخير وبه تكمن الراحة الأبدية!".

- "بين التراب لا يوجد راحة، يبدو أنك نسيتِ أمرَ أخي، ألم يخبرك بأنه متعبٌ وهو تحت التراب، أنسيت يا أمي؟ فالراحة لم تخلق لنا، نحن لا أحد، كي يهتموا بأمرنا، لا ننتمي لأحد بل وحدَه الضياع من ينتمي لنا، منسيون وبنا العزاء البارد يا أمي. لسنا بجياعٍ للخبز كما يعتقدون، نحن وهم جياعٌ للحق للكلمة نحن جياع للأرض قبل أي شيء!".

- "من أين لك هذا الحق؟ اصمت والّا قتلوك، الأرض أصبحت أرضهم ونحن لا قيمة فقط غثاء".

- "أفضّل الموت علي السكوت".

_ "لم تدفعني للهروب، لم تزيد من حنقي، أتركني لأرحل عَلِّي أجد قبرًا يشفق عليّ ويحتويني".

كان الهروب منه طريقي الوحيد، تركتُه ومضيت وحدي، بقطعة قماشٍ بالية أزلت الغبار والتراب والدماء عن جسدي وأكملت المسير..

في طريقي اتّكأت على جدارٍ مهترئٍ متعفن، شبت ريح رعناء بالمكان، صفعت عينيّ وأسقطت دموعي رغمًا عني أو ربّما بإرادتي، تراءى لي أنني سأكمل المسير غير أن جسدي هشٌّ ضعيف وأقدامي خائرة القوى وليس بيدي حيلة. كلمات صغيري وحدها من تَعُجُّ داخلي (حتى الموت لم يكن لنا شفيعًا يا أمي) بكيتُ وتعبت إلى أن استسلمت لرسول النوم، غفوت بجوار الجدار والكلمات نفسها بمنامي راودتني الكوابيس حتى بزغ الفجر ووصلت هنا. وها أنا أمامكم أتحدث معكم، يبدو أنني ما زلت على قيد الحياة أو أنها بالأصح ترفض تسليم جثتي، لن أخبركم بالمزيد، قلت لكم دموعكم لن تغير شيئًا؛ امسحوها عن وجناتكم، أنا بِغِنى عن نظرات الشفقة، بِغِنى عن كل شيءٍ، فقط اتركوني بسلام بلا استجوابات.

ما أعلمُه الأن أنني لم أعد هناك ولم أعد أحدًا، ما أعلمه أنني مجموعة عظامٍ متآكلة تنتقل من مكان لمكان انتهت قبل نهايتها!!